المحاضرة الأولى

الفرق الإسلامية (1)

لا يختلف اثنان أن النّص القرآني مجّد النّظر والاستدلال العقلي ضمن فلك الفكر العقائدي عند المسلمين، فلا جرم أن ينطق القرآن قائلا: « إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ » سورة الأنفال، آية 22 فليس لنا أن نتجاهل احتواء القرآن الكريم على ضروب متنوعة في السعي نحو الاستدلال والبحث باتّباع قواعد الفكر الملزمة، ومن التّنبيه المستمر على النّظر العقلي في الكون والتّأمل فيه وعلى التدبّر في بناء العوالم.

القدرية:

يقصد أصحاب التّاريخ في مؤلفاتهم بها أوائل من قال وتحجّج بالقدر، ومن رحمها خرجت المعتزلة. حيث يذكر الإسفراييني أنّ "بدعة القدرية حدثت في أواخر عهد الصحابة، وقد اشتهر أن أوّل من أحدث القول بالقدر معبد بن خالد الجهني*، اختلفوا في اسم أبيه، رأى من يتعلل في المعصية بالقدر فأراد أن يرد عليه وأخطأ الطريق ، وهو أمر أخذت به الدولة الأموية كغطاء للتجبّر والطّغيان.

ويذكر النشّار ما ساد في هذا العصر من الجبر حتى لكاد ينهار حين سلبت منه حريته، إذ أعلن عن "فكرة الجبر المطلق وإنها هي التّفسير الوحيد للنّصوص القرآنية، فعلوا هذا إرضاء للخليفة المغتصب، وأمر الخليفة عمّاله في مختلف بقاع العالم الإسلامي بنشر الفكرة وأخذ الناس بها، يؤمن بها الكبير قسرًا، ويرضعها الصّغير ويحبوا بها وعليها.

المجتمع الإسلامي في هذا العصر بالأخص البصرة التي كانت تدين للأمويين، شاع فيها الفساد؛ وشاعت الفكرة أنه قدر علينا ولا محيص، وشاعت فكرة الإجبار وأصبح كل من يقول بخلافها فمآله إلى الزوال.

---

*- ابن عُويمر وقيل ابن عبد الله ابن عُكيم الجُهَنِيُّ نزيل البصرة، وأول من تكلّم في زمن الصحابة، وكان من علماء الوقت على بِدعته، قال مُحَمَّد بن شُعيب: سمعت الأوزاعيَّ يقول: أوّل من نطق بالقدر سوسن بالعراق، كان نصرانًّا فأسلم ثم تنصّر،فأخذ عنه معبد، وأخذ غَيْلان القدريّ عن معبد، مات قبل التسعين، وقال سعيد بن عُفير: في سنة ثمانين صلب عبد الملك معبدًا الجهني بدمشق.(يُنظر سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج4،187).

حدث القول بخلاف ذلك وهو القول بالإرادة الحرة قال به معبد بن خالد الجهني، حيث "أجمعت كتب العقائد الإسلامية على أن معبدا الجهني هو أول من تكلم في القدر من المسلمين، ومن يقرأ ويتتبع التاريخ الإسلامي يرى أن أفكاره انتشرت كالنار في الهشيم، ودان بها خلق كثير، حيث لم يسلم من تأثير تلك الأفكار إلا قلة قليلة من خواص العلماء والسلف الصالح، ممن عصمهم الله عن الزيغ والطغيان الذين رفضوا الحديث في القدر، وتفسير الآيات على رأي ملوك بني أمية، من كل هذا يتبين لنا حقيقة دعوة معبد الجهني، أنه ينكر على ملوك بني أمية مظالمهم باسم العدل الإلهي، فإذا يكون أول من أعلن نظرية العدل المعتزلية في العالم الإسلامي، وأول من نادى بحرية الإرادة الإنسانية .

أخذ غيلان الدمشقي عن معبد الجهني، حيث كانت له صلة مع الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ومناقشات، حيث كانا يتلاحيا بالآيات القرآنية، يورد هذا آيات الجبر، وذلك آيات الحرية، وانقطع غيلان عن في الجدال، وأنّه وعد الخليفة بألا يتكلّم في هذا الأمر أبدا، ووفى بوعده، فلما مات عمر سال منه السيل؛ القول بالحرية في الأفعال، والحرية في الفهم المتنصّل من دعائم التّفسير.

ضمن هذه الظروف كانت الغيلانية فرقة يتّضح في تبنيها لفكرة الاختيار الإلهي، وإنكار الجبر الإلهي،كانت الركيزة الأولى لقيامها، ولكن كان المقصود بهذا الرأي النظري إنكار القهر الاجتماعي الذي فرضه بنو أمية على جماهير المسلمين بالقول أساسه قَدَر علينا ولا مَحِيص، التي سلطتهم على رقاب المسلمين. تلك هي أولى فُهوم القدرية المبشرون الأوائل بمذهب الحرية الإنسانية، ولكن المجبرة الأوائل أو الجهمية خالفوهم باعتماد التأويل العقلي ذَوُو منحى مُخالف لسابقيهم.

مصادر المحاضرة:

علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1.

محمد صالح السيد، مدخل إلى علم الكلام، دار قباء،القاهرة، د ط، 2001

الشهرستاني، الملل والنحل، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، ط1، 2006 .

البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد عثمان الخشن، مكتبة ابن سينا، القاهرة، دط، د س،